الفصل الرابع

استيلاء الكنيسة على عصور الظلام
(500 – 1000م)

كان للكنيسة أثرها المدمر على المجتمع، فبعدما تسلمت الكنيسة القيادة تهاوت الأعمال والنشاطات في ميادين: الطب، والتقنيات، والعلوم، والتعليم، والتاريخ، والفن، والتجارة، وسقطت، ودخلت أوربا عصور الظلام، ومع أن الكنيسة جمعت ثروة كبيرة جداً، خلال هذه القرون، لكن كل ما يتعلق بالحضارة قد اختفى.

وسقطت الإمبراطورية الرومانية خلال القرن الخامس، نتيجة للهجمات المتوالية التي قام بها الجرمان القوط، في حين سقطت المقاطعة الرومانية في أفريقيا بيد الوندال، ووجه كثيرون اللوم إلى المسيحية، فعندما في عام 410م نهب القوط الغربيون روما «المدينة الخالدة»، التي بقيت صامدة قوية لمدة ستمائة وعشرين عاماً، ازداد توجيه النقد إلى الديانة الجديدة وتعاظم، وجرت كتابة واحد من أهم كتب القديس أوغسطين وأشهرها، وهو «مدينة الرب» بمثابة دفاع عن المسيحية ضد مثل هذه الاتهامات.

ونجد على كل أن الإمبراطورية الرومانية الشرقية، التي تعرف أيضاً باسم الإمبراطورية البيزنطية، قد تدبرت أمورها أفضل، خاصة تحت حكم الإمبراطور جستنيان (527 – 565م)، حيث استعادت كثيراً من قواها، واستردت السيطرة على إيطاليا من القوط الشرقيين، واستعادت أفريقيا من الوندال، ويعزى إلى جستنيان وزوجته ثيودورا فضل انتعاش الآداب، والفن، وهندسة البناء، وكذلك تدوين

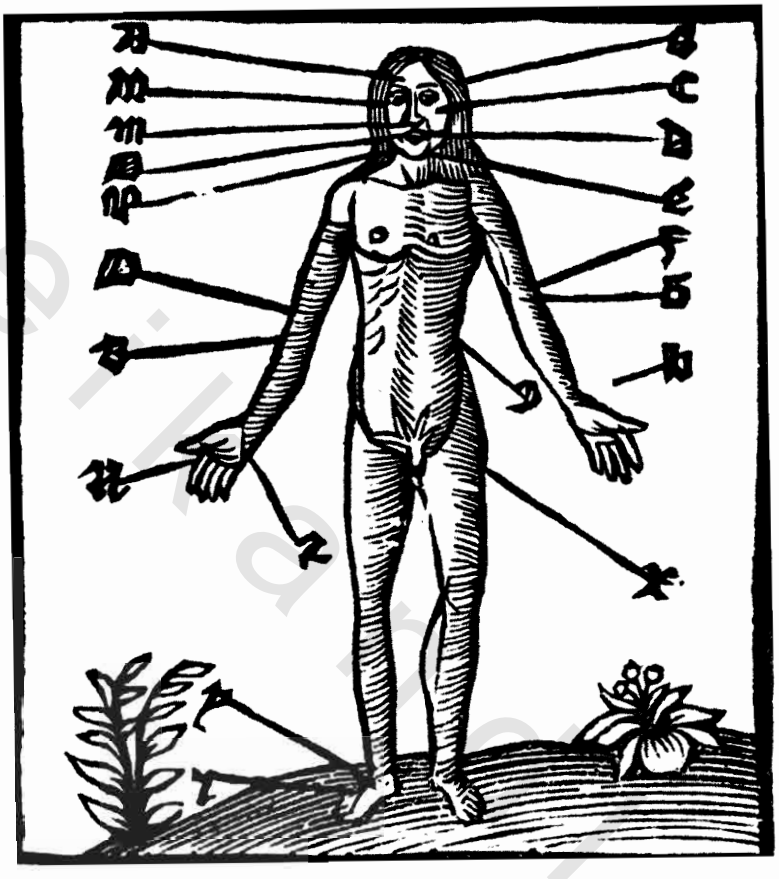

ما أن جرى الإعلان على أن الطب الإغريقي والروماني كان هرطقة، حتى غدا ممارسة الفصد أمراً شائعاً، ونشرت هذه اللوحة المحفورة عام 1516م وهي تبين المناطق التي ينبغي إخراج الدم منها.

القانون الروماني، ولكن هذا الازدهار البيزنطي عاش زمناً قصيراً، وانقطع عندما انتشر وباء الطاعون الدبلي، بداية من عام 540م، وضرب بشكل خبيث وعنيف لم يعرف له مثيلٌ في التاريخ الإنساني، في أي وقت من الأوقات، لا من قبل ولا من بعد، ففي بيزنطة وحدها يقال بأن الطاعون قتل عشرة آلاف شخص يومياً، وشدة

هذا الطاعون وقسوته من الصعب قياسها وتقديرها، وقتل طاعون الموت الأسود الذي جاء فيما بعد، في العقد الأول من القرن الرابع عشر، كما يعتقد بعضهم ثلث سكان أوربا، أي قتل حوالي سبعة وعشرين مليون من البشر، وبمقارنته مع طاعون القرن السادس، من المعتقد أن هذا الطاعون الأول قد أتى على مائة مليون حياة[1]، ولذلك لم تتعافَ الإمبراطورية الرومانية بعد ذلك أبداً.

وكان للطاعون تأثير مختلف على المسيحية، فقد تدفق الناس على الكنيسة وهم مرعوبون[2]، وأوضحت الكنيسة أن الطاعون كان من أعمال الرب، وأن الإصابة بالمرض مجرد عقوبة على ذنب عدم إطاعة سلطة الكنيسة، ووسمت الكنيسة جستنيان بالهرطقة، وأعلنت أن ميدان الطب اليوناني والروماني، بلا فائدة، في مكافحة الطاعون ومقاتلته، وأنه مجرد هرطقة[3]، ففي الوقت الذي أكد فيه الطاعون سقوط الإمبراطورية الرومانية، إنه متن الكنيسة المسيحية وقواها.

وبعد الطاعون تحكمت الكنيسة بنظام التطبيب الرسمي، وصار أكثر الممارسات التطبيبية شيوعاً بين القرن السادس والقرن السادس عشر، والمستخدم لكل مرض، هو «الفصد»، وعلم الرهبان المسيحيون وبشروا وقالوا بأن فصد إنسان سوف يمنع عدم التوازن السمي، ويمنع الرغبة الجنسية، ويعيد المزاج والتوازن، ومع القرن السادس عشر، كانت هذه الممارسة تقتل عشرة آلاف إنسان كل عام، ومع هذا عندما كان إنسان يموت أثناء جريان الدم، كان اللوم يقع على أن المعالجة لم تبدأ في وقتها، ومورست بشكل فيه عنف أكثر[4].

واختفت التقنية عندما غدت الكنيسة القوة الأكثر تماسكاً في المجتمع الغربي، وزالت أقنية جر المياه وأعمال الأنابيب، وعلمت المسيحية الأرثوذكسية وبشرت وقالت بأن جميع جوانب الجسد ينبغي لعنها، ولذلك شجعت على عدم الاغتسال بقدر الإمكان، واختفت المراحيض والأنابيب داخل البيوت، وصارت الأمراض شائعة وموجودة دوماً، وتدهورت وسائل الوقاية الصحية وعلوم الصحة، ولمئات من السنين كانت المدن والقرى تفنى وتموت بالأوبئة[5]، وتم التخلي عن نظام التدفئة المركزية الرومانية أيضاً[6]، وكما كتب واحد من المؤرخين:

«منذ حوالي 500م فصاعداً، ساد الاعتقاد أنه ليس شقاء وتعباً التمدد على الأرض أثناء الليل، أو على دكة قاسية فوق مساند منخفضة، أو فوق أرض رطبة

وفئران، وبات أن يكون الإنسان في الداخل وخلف الأبواب شيئاً من الترف، ولم يكن أيضاً مرفوضاً نوم الناس كحشد متراصين مع بعضهم بعضاً جماعة لأن الدفء أعلى قيمة من الخصوصيات»[7].

وكذلك أهملت شبكةُ الطرق الواسعة التي كانت تمكن الناس من الانتقال سوالاتصال، وبقيت هكذا حتى القرن التاسع عشر تقريباً[8].

وكان فقدان العلم أمراً هائلاً، وأقدمت الكنيسة في بعض الحالات على إحراق الكتب وقمع المثقفين والثقافة، وهي ممارسة أرجعت البشرية ما يساوي ألفي عام في مفاهيمها العلمية، وكان فيثاغورس في القرن السادس ق. م قد جاء بنظرية فيها فكرة بأن الأرض تدور حول الشمس، وفي القرن الثالث ق. م وضع أرسطارخوس Aristarchus معالم نظرية المركزية الشمسية، وقاس ايراتوشينيز Eratosthenes محيط الأرض، ومع القرن الثامن قبل الميلاد اخترع هبّارخوس Hipparchus خطوط الطول وخطوط العرض، وميل دائرة البروج[9]، وبعد قيام العصور الوسطى المظلمة، حدث فقط أنه في القرن السادس عشر م، قام كوبيرينوس بإعادة تقديم نظرية بأ الأرض تدور حول الشمس، وعندما حاول غاليلو أن يرفع من شأن نظرية المركزية الشمسية في القرن السابع عشر، جرت محاكمته من قبل محكمة التفتيش في روما، وفقط في عام 1965م نقضت الكنيسة الكاثوليكية قرار إدانتها لغاليلو، وردد القديس أوغسطين أصداء المفاهيم العلمية للكنيسة عن العالم بقوله:

«من غير الممكن وجوب وجود سكان على الطرف المقابل من الأرض، لأنه لم يرد ذكر مثل هذه الأجناس في الكتابات المقدسة بين أولاد آدم»[10].

وأعيدت كتابة التاريخ ليصبح مثبتاً للعقائد المسيحية، واعتقد المسيحيون الأرثوذكس بأن التاريخ ضروري فقط من أجل وضع أحداث الماضي في الإطار التوراتي، أو حسبما قال دانييل بورستن Boorstin: «أصبح التاريخ مجرد حواشٍ للأرثوذكسية»[11]، وكتب أيضاً في كتابه «المكتشفون» يقول:

«كان الذوق المسيحي مستعداً للإيمان بيسوع المسيح الواحد، وبرسالته حول الخلاص، والذي كان مطلوباً ليس النقد بل التصديق، واعترف آباء الكنيسة أنه في مملكة التفكير للهرطقة وحدها تاريخ»[12].

وشرع يوسيبيوس القيساريّ في أيام قسطنطين الكبير بإعادة كتابة تاريخ العالم في تاريخ للمسيحية، وقد كتب يقول:

«كتب آخرون التاريخ من أجل تدوين أخبار القتال في الحروب التي شنت من أجل الأبناء والبلاد والممتلكات الأخرى، غير أن روايتنا سوف تكون عن حكومة الرب، وسوف تدون في حروف لا تطمس أخبار الحروب الأكثر سلاماً، والتي أثيرت لصالح سلام الروح»[13].

وحل الإيمان الأعمى محل روح البحث التاريخي، وعلى الإنسان - كما قال يوسيبيوس - أن يثق «في الكلام الذي لا يرد ولا ينقض، الذي قاله المعلم لحواريه: إنه ليس لكم أن تعرفوا الأوقات أو الفصول التي وضعها الأب في إطار سلطته»[14].

ومع أن الكنيسة منعت البحث التاريخي بشدة أكبر، تابعت مسيرة إعادة كتابة التاريخ التي كانت قد بدأتها قبل وقت أبكر بكثير، وقد بدأت الحفريات الأثرية في الكشف عن صورة مختلفة تماماً للتاريخ الإنساني، مختلفة عما جرت روايته حتى عن روما ما قبل المسيحية، ففكرة أن التاريخ قد بدأ منذ خمسة آلاف عام مضت، فكرة مخطئة بشكل شنيع، ففي العصر الحجري الحديث، بعدما تحول الناس من الصيد ومن جمع الطعام إلى الزراعة، خاصة فيما بين سبعة آلاف وأربعة آلاف ما قبل الميلاد، قد ازدهرت ثقافة ناضجة بشكل مدهش وكان الفن، والهندسة المعمارية، وتخطيط المدن، والرقص، والدراما الطقوسية، والتجارة في البر والبحر، والكتابة، والقانون، والحكومة، معروفين بشكل جيد بالنسبة إلى هؤلاء الناس، ولا تعود الأفكار الأولى للديموقراطية بالأصل تاريخياً إلى الإغريق، بل إلى ما هو أبكر بكثير، إنها تعود إلى هذا العصر الحجري الحديث، ولعل الأمر الأكثر إدهاشاً أن هذه الثقافات لا تظهر أية شواهد على وجود المراتب اللاهوتية المتسلسلة كما نعرفها، ولم يعرف الناس الحرب آنذاك، ولا الظلم المنظم أو العبودية[15].

وساعدت أعمال إعادة كتابة التاريخ في محو الوعي والإدراك لمثل ذلك الماضي، الذين هم في السلطة على تجنب النقد بالنسبة لمجريات شؤون الدولة، وقد صورت المجتمع الإنسانيَّ وكأنه قد تطور بشكل ثابت، وأنه بالحري لم يعان من انتكاسات كبيرة، معطياً الانطباع أنه مهما كان المجتمع الآن بشعاً وعنيفاً، إنه كانَ في الماضي حتى أكثر وحشية وقسوة، ونجد على سبيل المثال أوروسيوس Orosius تلميذ القديس أوغسطين، قد عرض في كتابه «سبعة كتب في التاريخ ضد الكفار» بأن الشر

مع ازدياد قوة الكنيسة، أقدم المسيحيون على إغلاق الأكاديميات وإحراق الكتب وكذلك مكتبات كاملة، وتصور هذه اللوحة المحفورة متحولين إلى عقيدة القديس بولص وهم يحرقون بعض الكتب.

في أيامه لا يمكن توجيه اللوم بالنسبة لوجوده على المسيحية، بسبب أن العصور الماضية قد عانت حتى من فواجع ومآس أعظم[16]، وأعطى تشويه التاريخ وإعادة كتابته الانطباع بأن المسيحية لم تقم فقط برفع المجتمع وإخراجه من العصور الأقسى، بل من العصور الأكثر بربرية، وأن البنيان الاجتماعي ذي الطبقات اللاهوتية المتسلسلة والتحكم اللاهوتي قد وجد دوماً، وكان لذلك لابد منه.

وكان للكنيسة المسيحية تأثير ضاغط مشابه على العلم والتعليم، فقد أحرقت الكنيسة كميات هائلة من الكتب، ففي عام 391م، أحرق المسيحيون واحدة من أعظم مكتبات العالم في الاسكندرية، التي قيل بأنها احتوت على سبعمائة ألف مدرج مخطوط، لقد جرى إحراق جميع الكتب الغنوصية العائدة لباسيليدس Basilides، وكتب بورفيري Porphyry التي كانت في ستة وثلاثين مجلداً، ومدارج البردي العائدة لسبع وعشرين مدرسة للتصوف Mysteries، ومائتين وسبعين وثيقة قديمة كان قد جمعها بطليموس فيلادلفوس[18]، وأغلقت أكاديميات التعليم القديمة، وصار التعليم بالنسبة إلى أي واحد خارج الكنيسة، أمراً منتهياً، والثقافة القليلة التي بقيت خلال عصور الظلام، بقيت حكراً على رجال اللاهوت، وقد اتخذ هؤلاء من قبل الملوك الأقوياء بمثابة وسيلة أمدتهم بإداريين قادرين[19].

وعارضت الكنيسة دراسة النحو واللاتينية، وكان البابا غريغوري الأول، أو غريغوري الكبير رجلاً، ساد الاعتقاد بأنه كان واحداً من أعظم مهندسي نظام العصور الوسطى[20]، قد عارض دراسات النحو حيث كتب:

«إنني أمقت الأبنية الأصيلة والقضايا، لأنني أعتقد أنه من غير اللائق تماماً وجوب إخضاع الوحي اللاهوتي إلى الأحكام الدقيقة التي وضعها دوناتوس Donatus (النحوي المعروف بشكل جيد)»[21].

وأدان غريغوري الكبير أيضاً التعليم، وطالب بعدم تقديمه إلى الجميع، باستثناء رجال اللاهوت فقط، لأن تقديمه إلى الجميع هو حماقة وشرور، ومنع العلمانيين حتى من قراءة التوراة، وتولى أمر إحراق مكتبة أبولو البالاتيني Palatine Apollo «خشية أن تضلل آدابها غير اللاهوتية المؤمنين وتبعدهم عن التفكير بالسموات»[22].

كان القديس غريغوري الكبير بابا من 590 حتى 604م، وهو قد شهر بتمتين استقلال البابوية عن سلطة الإمبراطور البيزنطي، وهو أيضاً أحرق الكتب ومنع القراءة وحظر تعليم رجال اللاهوت.

وحرّم المجْمَعُ المقدس الرابع في قرطاج في عام 398م، - على الأساقفة قراءة حتى كتب الأميين[23] Gentiles، - وأبدى جيروم، أبو الكنيسة، والذي كان من أوائل رجال الأديرة في القرن الرابع م، سروره العارم، لأن الكتاب الكلاسيكيين قد نُسُوا، وكان معاصروه من رجال الأديرة قد شهروا بالتفاخر بجهلهم بكل شيء، إلاّ الأدب المسيحي[24]، وبعدما أمضى المسيحيون الأعوام الطوال في تدمير الكتب والمكتبات، أعلن بفخار القديس جون خريسوستوم Chrysostom الذي كان من أشهر آباء الكنيسة الإغريق «بأن كل أثر من الفلسفة القديمة، والآداب العائدة لقدماء العالم قد زالت من وجه الأرض»[25].

وتألفت مكتبات الأديرة، وهي المكتبات الوحيدة التي بقيت - من كتب الإيمان فقط، لا بل حتى إنَّ أهم المكتبات الديرية قد ابتعدت قليلاً فقط عن كتب حول اللاهوت المسيحي[26]، وعندما كان الرهبان يقومون بنسخ المخطوطات، فإن هذا العمل لم يقدر لقيمته الجوهرية، بل بالحري عدّ بمثابة جزء من الأعمال المفروضة بموجب قانون العمل الديري، وأنه كان جهداً ضرورياً - حسب ما قاله كرستيان كاسيودوروس Cristian Cassiodorces - من أجل: «محاربة الشيطان بالقلم والحبر»[27]، وكان نسخ المخطوطات، حتى وإن كانت هذه المخطوطات مخطوطات كلاسيكية، لم يشر بالضرورة إلى وجود تقدير للعلوم الكلاسيكية، فهناك ملاحظات تاريخية مدونة بأن رهبانيات كلوني اتبعت تقليداً قضى بالتسليم بعدم احترام الأعمال والكتابات الكلاسيكية «فإذا ما أراد راهب كتاباً أثناء ساعات الصمت، وعمل إشارة على تقليب الصفحات، س إنه إذا ما أراد كتاباً كلاسيكياً، كان يحك أذنيه مثل كلب»[28].

وكان للكنيسة أثرٌ مدمرٌ على التعبير الفني، وتبعاً للمسيحية الأرثوذكسية، ينبغي على الفن تجميل القيم المسيحية ورفع شأنها، وذلك إذا لم يخدم ببساطة كبحث فردي خلاق وتعبير خاص، وهكذا حكم على الأعمال الفنية الجديدة التي لم تتوافق مع عقيدة الكنيسة أن لا تظهر مرة أخرى حتى عصر النهضة، ولقد جرى قلب وتحطيم التماثيل الرخامية لروما القديمة، وذلك بشكل خاص من قبل غريغوري الكبير، واتخذت ليعمل منها كلساً، أما الأعمدة الرخامية والفسيسفاء، إما عُمل منها كلس، أو أخذت لتزيين الكاتدرائيات عبر أوربا كلها، وصولاً حتى دير

ويستمنستر في لندن، ويمكن تتبع بعض آثار الأعمال الرخامية المنهوبة في ألواح الرخام الرقيقة المستخدمة للتزيين، والتي عليها كتابات قديمة، والتي ماتزال موجودة في كثير من كنائس هذه الأيام[29].

وتزامن قيام الكنيسة المسيحية وارتفاع شأنها مع الانهيار الاقتصادي في جميع أرجاء العالم الغربي، وبذلت الكنيسة جهداً صغيراً لتشجيع التجارة، وتتضمن قوانين غراشيان Gratian وثيقة من القرن السادس جاء فيها: «كل من يشتري شيئاً من أجل إعادة بيعه سليماً، مهما كان نوعه، هو مثل التجار الذين طردوا من الهيكل»[30]، وأدانت الكنيسة إقراض المال بالفائدة، الأمر الذي جعل تمويل المغامرات الاقتصادية في غاية الصعوبة، لكن العقود التجارية لذلك الزمن أشارت إلى أن الكنيسة كانت تتدخل أحياناً، وتقوم بإعفاء المستدين من المسؤوليات القانونية، وبذلك لغمت كل إمكانيات قيام أي واحد بإقراض المال[31].

وكانت الكنيسة نفسها على كل حال واحدة من التنظيمات الرابحة لذلك الزمان، وبموجب ذلك زودت كثيراً من الناس بوظائف مربحة إلى أقصى الحدود، وقد شغل المال مع السلطة دوراً حاسماً في ارتقاء الناس خلال المراتب اللاهوتية للكنيسة، وأسهم في طبيعة السمعة السيئة لكنيسة العصور الوسطى، وهناك على الأقل أربعون بابا معروفون أنهم شروا طريقهم إلى البابوية[32]، وكانت الاتهامات بالقتل والجرائم داخل الكنيسة تتكدس وتصبح كثيرة جداً ومتكررة بكثافة كلما حدث تغيير بالبابوية، وفي شكل خاص خلال مائة سنة متميزة، وصل فيها إلى البابوية أكثرُ من أربعين بابا تسلموا ذلك المنصب، ففي مدة مقدارها اثنا عشر عاماً فقط هي من 891 إلى 903م هناك ما لا يقل عن عشرة بابوات مختلفين تسلموا السلطة البابوية[33].

وجمعت الكنيسة خلال عصور الظلام من الثروات ما لا هو محدود، وبالنسبة للأملاك الموقوفة، استحوذت الكنيسة على أراض كانت معفوّةً وحرة لا تدفع الضرائب أو تؤدي الخدمات العسكرية المتوجبة إلى الملك، وقد بلغ حجم هذه الأملاك ما بين ربع إلى ثلث أوربا الغربية[34]، وبالإضافة إلى الأوقاف، غالباً ما استحوذ الأساقفة على مناطق كانت مشمولة بنظام الاستثمار الإقطاعي، بحيث كان من المتوجب عليهم مثل أي كونت أو بارون تزويد الملك بالجنود عندما يدعو إلى ذلك، وحصلت الكنيسة على المال بجمع الموارد من الحكام الإمبراطوريين،

وبمصادرة الممتلكات كنتيجة لأحكام صادرة عن المحاكم، وببيع التحليلات من الذنوب (دعيت: بالغفرانات) وببيع المناصب الكنسية (دعيت باسم السيمونية = السمعانية)، وفي بعض الأحيان بالاستيلاء، بكل بساطة، على الأرض بالقوة[35].

وكان التحالف مع الدولة ضرورياً بالنسبة إلى الكنيسة لضمان نفوذها العلماني ولتحصيل الثروة، وكانت الأوضاع الآن، لا تشبه - على كل حال - ما كانت عليه أثناء حكم الإمبراطورية الرومانية، ذلك أن عدداً من القوى الإمبراطورية استحوذت الآن على السلطة، فعلى سبيل المثال، كان الغرب مع عام سبعمائة مقسماً إلى أربع ممالك أساسية، فقد كانت اسبانيا محكومة من قبل القوط الغربيين المسيحيين وسوف تسقط في 711 - 713 إلى الفاتحين المسلمين، وحكم الأنكلو - سكسون انكلترا، وحكم الفرنجة غاليا، وحكمت إيطاليا بشكل رئيسي من قبل اللومبارد، مع مناطق قليلة بقيت في أيدي الإمبراطورية البيزنطية[36] وأصبح التحالف الأكثر تعقيداً بين الكنيسة وبين مختلف الحكام الإمبراطوريين يعرف باسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وتمثل أفضل تمثيل بتتويج البابا لشارلمان في عام 800م ثم تتويج الملك الألماني أوتو الأول في عام 952م.

وربحت كل من الكنيسة والدولة من تحالفهما، حيث لم يؤمن الحكام الإمبراطوريين الإمداد بالموارد العسكرية فقط، بل أمنوا مراكز ووظائف مربحة لرجال اللاهوت، وبوساطة الإشراف الأعلى على الشؤون الإدارية للحكام، أصبح الأساقفة منوطاً بهم وموكلاً إليهم كل من السلطة المدنية والعسكرية، وصاروا أقوياء وقادرين وأصحاب نفوذ مثل أعظم السادة الإقطاعيين قوة ونفوذاً، وقد كتب المؤرخ جيفري بيرتون رسل Jeffrey Barton Russell يقول:

«كان النمط هو ديمومة الذات: فكلما ازداد الأساقفة قوة وثروة، كلما ازدادت حاجة الملوك إلى تعيين أشخاص مخلصين، ولكن حتى يضمن الملوك إخلاص مثل هؤلاء الرجال والحفاظ على ذلك، كلما توجب عليهم منحهم المزيد من السلطة والثروة، لذلك لا عجب أن أبقى الأساقفة أعينهم مسلطة بتركيز وعناية أكبر على العرش، أكثر مما فعلوه بالنسبة إلى الصليب»[37].

وفي عصر سيطرت فيه عقيدة الحق الإلهي للملوك، نظر إلى تأييد البابا للملوك على أنه أساسي، وجلبت الكنيسة وحققت مظهراً للوحدة للمملكة الإمبراطورية بتحويل شعبها إلى المسيحية.

وكان التحول الواسع الانتشار - على كل حال - في الواقع ليس أكثر من مجرد واجهة ظاهرية، وأظهر البابا غريغوري الأول، في رسالة بعث بها إلى رسوله إلى بريطانيا القديس أوغسطين أوف كانتربري، قلقه تجاه مظهر أن الناس قد تحولوا إلى المسيحية حيث قال:

«*. . . سوف يحتاج الناس إلى تغيير مكان احتشادهم، حيث اعتادوا في الماضي على التضحية بمواشيهم إلى الشياطين، وبناء عليه دعهم يستمرون بأن يجتمعوا في يوم عيد القديس المكرسة الكنيسة على اسمه، ويذبحون دوابهم، لكن ليس كقرابين أضاحٍ للشياطين بل من أجل وجبة طعام اجتماعية على شرف الذي يعبدونه الآن*»[38].

ومع أن الكنيسة أحدثت فوضى في معظم مجالات الحياة، إنها لم تحدث تغييراً حقيقياً في الطريقة التي تصور فيها عامة الناس، الرب، وإن استمرار الكنيسة ومتابعتها الحرب لإزالة الممارسات الوثنية، تشير إلى مدى ضعف معظم المتحولين إلى الكنيسة ووهنهم، فقد حذرت دوماً من العادات المتعلقة بالأشجار، والطبيعة، وأنذرت ضد الإيمان بالسحر، ومضت في بعض الأحيان إلى إزالة كنائس وهدمها وتسويتها بالأرض بعد اكتشافها بأن الناس كانوا يعبدون بالفعل أرباب أقدم أو ربّات هناك[39]، وفي عام 742م جاء في مرسوم كنسي فيه ما يلي:

«*. . . ينبغي رفض كل تدنيس وثني وطرده، سواء أكان التضحية للأموات، أو السحر، والعرافة، أو التمائم والكهانة، أو الرقى، أو تقديم القرابين، التي يمارس بها جميع الناس الجهلة طقوساً وثنية، مع طقوس الكنيسة، تحت غطاء أسماء شهداء مقدسين ومعترفين*»[40].

وأعيدت تسمية الينابيع المقدسة تشريفاً لقديسين، وبنيت كنائس فوق مواقع معابد وثنية، ومع ذلك بقيت طبيعة التبجيل، والعبادة دونما تغيير.

وشغلت الكنيسة دوراً حاسماً في نقل أوربا إلى عصور الظلام، وقد تم الشعور بتأثيرها المدمر في كل مجال من مجالات النشاط الإنساني، ومدهش حقاً، أن المنطقة الوحيدة التي كان لكنيسة العصور الوسطى تأثير قليل العمق عليها، هي تغيير الحياة الروحية لعامة الناس، ففي الوقت الذي تبنى معظم الناس فيه قشرة مسيحية خارجية فقط، لم يغيروا بشكل أساسي مفاهيمهم أو تصوراتهم للحرب.

obeikandl.com